هجيمة الدمشقية

العالمة الجليلة

عالمة جليلة، اشتهرت بأنها واسعة الاطلاع، وفقيهة كبيرة كانت متقدة الذكاء ملمة بالعلوم، متعمقة في الثقافة والمعرفة، بالإضافة إلى أنها كانت زاهدة متقشفة رغم شدة جمالها وحسنها، اسمها "هجيمة بنت حيي الأوصابية الدمشقية"، ولقبت بـ"أم الدرداء".

كان مجلسها يضم أبرز العلماء والفقهاء في عصرها.

وقد روت الأحاديث عن أبي الدرداء، وسلمان الفارسي، وفضالة بن عبيد، وأبي هريرة، وكعب بن عاصم الأشعري، وعائشة أم المؤمنين.

كما روى عنها جبير بن نفير، وابن أخيها مهدي بن عبد الرحمن، وأبو عمران الأنصاري، وسالم بن أبي الجعد، وزيد بن أسلم، وعثمان بن حيان الدمشقي، وعطاء الكيخاراني، ويونس بن ميسرة، ومرزوق التيمي، ومكحول الشامي، والأزهر بن الوليد الحمصي، وغيرهم.

كما روى لها مسلم وأبو داود والترمزي وابن ماجه.

وقد حظيت هجيمة بمكانة عالية بين أهل الثقة، فكانت أحاديثها وآراؤها موقع تقدير وتميز من علماء عصرها.

وكان الناس يقصدونها ليستمعوا إليها، تحدثهم في شئون الدين والدنيا، فينهلون من علمها الغزير، ويفيدون من حكمتها الصائبة.

وقد قال عون بن عبد الله: كنا نجلس إلى أم الدرداء فنذكر الله عندها، فقال الجمع لها: لعلنا قد أمللناك؟ فردت عليهم: تزعمون أنكم أمللتموني، فقد طلبت العبادة في كل شيء، فما وجدت شيئاً أشفى لصدري، ولا أحرى من مجالس الذكر. ثم قالت: أفضل العلم المعرفة، فتعلموا الحكمة صغاراً، تعملوا بها كباراً، فإن كل زارع حاصد ما زرع من خير أو شر. ثم استأنفت كلامها قائلة: ما بال أحدكم يقول: اللهم ارزقني وهو يعلم أن الله لا يمطر عليه من السماء ديناراً ولا درهماً، وإنما يرزق بعضكم من بعض، فمن أعطي شيئاً فليتقبله، فإن كان غنياً فليعطه للمحتاج، وإن كان فقيراً فليستعن به، ولا يرد على الله رزقه الذي رزقه، ولذكر الله أكبر، وليس هناك أفضل من التسبيح لله.

وقال لها رجل من الحضور: إني أجد في قلبي داءً لا أجد له دواء. أجد قسوة شديدة لا حيلة لي فيها. فقلت له: اذهب إلى القبور واشهد الموتى.. وتفكر، إنك لآتٍ إليهم في يوم من الأيام، فإن

حياتك مهما طالت قصيرة، إنما الوجل في قلب ابـن آدم كـاختراق السعفة ليس لها قشعريرة.

وقد كان لأم الدرداء مكانة عظيمة عنـد بنـي أميـة،يجلونـها ويوقرونها لفضلها ورفعة قدرها بين أهل العلم، فكانت تقيـم سـتة أشهر في بيت المقدس، وستة أشهر بدمشق، وكان عبد الملـك بـن مروان كثيراً ما يجلس معها في حلقتها، في مؤخرة مسجد دمشـق، يستمع إلى حديثها ومواعظها، أو يبعث إليها فتأتيـه وتـنزل فـي ضيافته بعض الوقت.

ويحكى أنه في ليلة، وكانت مقيمة عند عبد الملك، قام من نومـه ليلاً، فصاح يدعو خادمه، فلما أبطأ عليه، أخذ يسبه ويلعنـه، وفـي الصباح فوجئ بأم الدرداء تدخل عليه معاتبة، وقالت: سمعتك الليلـة تلعن خادمك.

فرد عليها: لما أبطأ عني استفزّني، فغضبت ولعنته.

فقالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يكون اللعـانون شُفَعاً ولا شُهَداً يوم القيامة".

ويذكر أنه لما توفي زوجها، خطبها معاوية بن أبي سفيان، لكنها ردت خطبته، وقالت: والله لا أتزوج في الدنيا، حتـى أتـزوج أبـا الدرداء إن شاء الله في الجنة.

وتوفيت حوالي عام ٨١ هـ.